شرح الأربعين النووية

الحديث الأربعون

كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّك غَرِيْبٌ

اللقاء الثالث والأربعون

الحديث الأربعون:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِمنْكبيَّ فَقَالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ" وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُوْلُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ. وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" رواه البخاري.

ترجمة الراوي:

ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- سبق الحديث عنه رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين.

منزلة الحديث:

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: فما أجمَعَ هذا الحديث لمعاني الخير وأشرفه [شرح الأربعين لابن دقيق العيد]!

قال المناوي رحمه الله: وهذا - الحديث - أصل عظيم في قِصر الأمل، وألا يتخذ الدنيا وطنًا وسكنًا، بل يكون فيها على جَناح سفر مهيأً للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأمم، وفيه حثٌّ على الزهد، والإعراض عن الدنيا [فيض القدير].

قال الجرداني رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم في قِصر الأمل، وفيه الحث على التفرغ من هموم الدنيا، والاشتغال بأمور الآخرة [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

◘◘ قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا حديث شريف، عظيم القدر، جليل الفوائد، جامع لأنواع الخير، وجوامع المواعظ، فانظر إلى ألفاظه، ما أحسنها وأشرفها وأعظمها بركة وأجمعها لخصال الخير، والحث على الأعمال الصالحة أيام الصحة والحياة [فتح المبين].

◘◘ قال الفشني رحمه الله: هذا الحديث حديث عظيم، جامع لأنواع الخير، وفيه الابتداء بالنصيحة والإرشاد لمن يطلب ذلك، وتحريضه -ﷺ- على إيصال الخير لأمته، فإن هذا الكلام لا يخص ابنَ عمر وحده [المجالس السنية].

◘◘ قال الطوفي رحمه الله: وهذا الحديث أصل في الفراغ عن الدنيا، والزهد فيها، والرغبة عنها، والاحتقار لها، والقناعة فيها بالبلغة [التعيين شرح الأربعين للطوفي].

شرح الحديث:

عندما نتأمل في حقيقة هذه الدنيا، نعلم أنها لم تكن يوما دار إقامة، أو موطن استقرار، ولئن كان ظاهرها يوحي بنضارتها وجمالها، إلا أن حقيقتها فانية، ونعيمها زائل، كالزهرة النضرة التي لا تلبث أن تذبل ويذهب بريقها.

تلك هي الدنيا التي غرّت الناس، وألهتهم عن آخرتهم، فاتخذوها وطنا لهم ومحلا لإقامتهم، لا تصفو فيها سعادة، ولا تدوم فيها راحة، ولا يزال الناس في غمرة الدنيا يركضون، وخلف حطامها يلهثون، حتى إذا جاء أمر الله انكشف لهم حقيقة زيفها، وتبين لهم أنهم كانوا يركضون وراء وهم لا حقيقة له، وصدق الله العظيم إذ يقول:(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[آل عمران: 185].

وما كان النبي -ﷺ- ليترك أصحابه دون أن يبيّن لهم ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم في الدنيا، ودون أن يحذّرهم من الركون إليها؛ فهو الرحمة المهداة، والناصح الأمين، فكان يتخوّلهم بالموعظة، ويضرب لهم الأمثال، ولذلك جاء هذا الحديث العظيم بيانا وحجة ووصية خالدة.....

((أَخَذَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِمنْكبيَّ)) يعني أمسك بهما؛ ليسترعي بذلك انتباهه، ويجمع إليه فكره، ويشعره بأهمية ما سيقوله له، أرادَ رسولُ اللهِ -ﷺ- أن يَقولَ شيئاً للشَّابّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فأَخَذَ بِمنْكِبِهِ؛ لمسةٌ حانيةٌ، لا يخفى ما فيها من المُلاطفةِ والمؤانسةِ، وشَدِّ الانتباهِ، وزيادةِ الاهتمامِ، وجَذبِ السَّمعِ والبصرِ والقلبِ؛ لأنَّه سيقولُ له وحيًّاً يُوحى، فهو لا ينطقُ عن الهوى، وسيُهديهِ نصيحةً خالصةً من الصَّادقِ الأمينِ، الرَّؤوفِ الرَّحيمِ حبيبِ المؤمنينَ،

فانسابت تلك الكلمات إلى روحه مباشرة، ((فَقَالَ)) له النبي -ﷺ-: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا))؛ أي: في مدة إقامتك بها، ((كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ))؛ أي: مشبهًا به؛ بألا تركن إليها وتطمئن فيها، قال ابن هبيرة رحمه الله: إن رسولَ الله -ﷺ- حضَّ على التشبُّه بالغريب؛ لأن الغريب إذا دخل بلدة لم ينافس أهلها في مجالسهم، ولا يجزع أن يُرَى على خلاف عادته في الملبوس، ولا يكون متدابرًا معهم.

سُبحانَ اللهِ! لقد اختصرَ -ﷺ- حقيقةَ علاقةِ الإنسانِ بالدُّنيا، بحروفٍ معدودةٍ تسلبُ لُبَّ البُلغاءِ، ويستسلمُ لجمالِها الأُدباءُ، وهكذا عندما يتكلمُ الأنبياءُ، فهم سادةُ ورؤوسُ الحُكماءِ.

قال بعض أهل العلم: "والمراد أن يُنزِل المؤمن نفسه في الدنيا منزلة الغريب، فلا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه، ويجعل إقامته في الدنيا ليقضي حاجته وجهازه للرجوع إلى وطنه، وهذا شأن الغريب، أو يكون كالمسافر لا يستقر في مكان بعينه، بل هو دائم السير إلى بلد الإقامة".

((أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ))؛ أي: همُّه قطع المسافة إلى مقصده، لا ينفُذُ في سفره إلا بقوته وتخفيفه من الأثقال، غير متشبثٍ بما يمنعه عن قطع سفره، معه زاده وراحلته يبلغانه إلى ما يعنيه من مقصده، وفي هذا إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا، وأخذ البلغة منها، والكَفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثرَ ممَّا يبلِّغه غاية سفره، فكذلك المؤمن لا يحتاج في الدنيا إلى أكثرَ مما يبلغه المحَلَّ.

وانظر كيف شبّه النبي -ﷺ- مُقام المؤمنين في الدنيا بحال الغريب؛ فإنك لا تجد في الغريب ركونا إلى الأرض التي حل فيها أو أُنسا بأهلها، ولكنه مستوحش من مقامه، دائم القلق، لم يشغل نفسه بدنيا الناس، بل اكتفى منها بالشيء اليسير.

فعابر السبيل: لا يأخذ من الزاد سوى ما يكفيه مؤونة الرحلة، ويعينه على مواصلة السفر، لا يقر له قرار، ولا يشغله شيء عن مواصلة السفر، حتى يصل إلى أرضه ووطنه.

لقد أخبرنا -ﷺ-، أن الدُّنيا ليستْ دارَ قَرارٍ لأحدٍ، وأنَّ الواحدَ مِنَّا فيها كالغريبِ أو كعابرِ السَّبيلِ، مشغول في الدُّنيا بحاجتِه التي جاءَ من أجلِها، مُترَقباً لساعةِ الرَّحيلِ، تلكَ السَّاعةُ التي يَرجعُ فيها إلى بلادِه، ويَقدمُ على أهلِه، ولذلكَ تجدُه مستوحشاً من مَقامِه هُناكَ، لا يُخالطُ النَّاسَ كثيراً، قليلَ الانبساطِ والكلامِ معَهم، دائمَ القلقِ، يكتفي بالشَّيءِ اليسيرِ، لم يُشغلْ نفسَه بدُنيا النَّاسِ وشهواتِهم، بل طعامٌ دونَ طعامٍ، ولباسٌ دونَ لباسٍ، فإنما هي أيامٌ معدواتٌ، وكما جاءَ في

الحديثَ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِن العذَابِ، يَمْنَعُ أَحدَكم طَعامَهُ وشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ".

كُنْ فِي الحَياةِ كعَابِرِ سَبيلْ *** وَاتْرِكْ وَرَاءَكَ الأَثَرَ الجَميلْ

فَما نَحْنَ فِيهَا إلا ضِيوفٌ *** وَمَا عَلىْ الضّيوفِ إلَّا الرَّحِيلْ

في قاموسِ الحياةِ لا يوجدُ مواطنٌ ومُقيمٌ، بل جميعُ النَّاسِ مُقيمونَ، كلٌّ منهم يحملُ هويةَ مُقيمٍ، يوشكُ أن تنتهيَ ويرحلَ عنها بخروجٍ نهائي لا عودةَ بعدَه، ولكن المُخيفَ أنَّ تاريخَ انتهاءِ الهويةِ مفقودٌ، فلا يعلمُ أحدُنا متى الرَّحيلُ، فينبغي أن نكونَ جاهزينَ، مُترقبينَ للنِّداءِ الأخيرِ، سَألوا بَعضَ الصَّالحينَ بعدما قَلَّبوا بَصرَهم في بيتِه: إنَّا نَرى بيتَك بَيتَ رَجلٍ مُرتحلٍ، فقَالَ: "لا أَرتحلُ، ولكن أُطردُ طَرداً".

وقد يسألُ السَّائلُ: إذا كُنَّا في الدُّنيا وفي أوطاننا وبينَ أهلِنا نعيشُ غُرباءَ، فأينَ المسكنُ؟! اسمعْ إلى السَّكنِ الذي اختارَه اللهُ –تعالى- لأبينا وأمِّنا: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)[البقرة: 35]، ولكنْ أُخرجا منها إلى الأرضِ بسببِ الأكلِ من الشَّجرةِ مؤقتاً، (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[البقرة: 36]، فأُهبِطوا إلى الأرضِ لأجلِ تمحيصِ الذُّرِّيَّةِ، ومعرفةِ من يستحقُّ الرُّجوعَ إلى جنَّةِ النَّعيمِ، ومن يستحقُّ الخُلودَ في نَارِ الجَحيمِ، (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[البقرة: 38، 39].

واستمعوا إلى مؤمنِ آلِ فِرعونَ وهو ينصحُ قومَه: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) [غافر: 39]، تستمتعونَ بها إلى أجلٍ، ثُمَّ تزولُ وتضمحلُ، (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) [غافر: 39].

وصدقَ ابنُ القيمِ –رحمَه اللهُ- حِينَ قالَ:

فحيَّ على جَناتِ عَدنٍ فإنَّها *** منازِلُنا الأولى وفيها المخيَّمُ

ولكننا سبيُ العدوِّ فهل تُرى *** نعودُ إلى أوطانِنا ونُسلَّمُ

ألا تُلاحظونَ شوقَ القلبِ وحنينَ الرَّوحِ، عندما يحدِّثُنا أحدٌ عن الجنةِ، أو نقرأُ وصفَها في القرآنِ، هو نفسُ الشُّعورِ الذي يشعرُ به الغريبُ عندما يحدثُه القادمُ من بلادِه، ويخبرُه عن أهلِه

وأصحابِه وأحبابِه، ويصفُ له البلادَ والطُّرقَ والمساكنَ، وهكذا هو حبُّ الأوطانِ، فكيفَ إذا كانَ الوطنُ جنَّةَ الرَّحمنِ.

كمْ مَنزلٍ في الأرضِ يَألفهُ الفتَى *** وحنينهُ أبداً لأوّلِ مَنزلِ

هل رأيتُم يوماً غريباً أو عابرَ سبيلٍ قد تركَ ما جاءَ من أجلِه وأصبحَ يلعبُ مع اللَّاعبينَ، ويلهو مع اللَّاهينَ، ويصرفُ على التَّافهاتَ والشَّهواتِ أموالاً قد تَعبَ في جمعِها سِنينَ؟، وهكذا المؤمنُ تراهُ مشغولاً في طاعةِ ربِّهِ، مُستثمراً أوقاتِه بما خُلقَ من أجلِه؛ لأنَّهُ قد خُلقَ لأمرٍ عظيمٍ: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56].

يقولُ داودُ الطَّائي –رحمَه اللهُ-: "إنَّما الليلُ والنَّهارُ مراحلُ، ينزلُها النَّاسُ مَرحلةً مَرحلةً، حتى يَنتهيَ ذلك بهم إلى آخرِ سَفرِهم، فإن استطعت أن تُقدِّمَ في كلِّ مَرحلةٍ زاداً لما بينَ يديها فافعلْ؛ فإنَّ انقطاعَ السَّفرِ عمَّا قريبٌ، والأمرُ أعجلُ من ذلكَ، فتَزوَّدْ لسفرِك، واقضِ ما أَنتَ قَاضٍ من أَمرِكَ".

وهكذا يكون المؤمن، مقبلا على ربه بالطاعات، صارفا جهده ووقته وفكره في رضا الله سبحانه وتعالى، لا تشغله دنياه عن آخرته، قد وطّن نفسه على الرحيل، فاتخذ الدنيا مطيّة إلى الآخرة، وأعد العدّة للقاء ربه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله –ﷺ-: "من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ" صحيح الترمذي.

لقد بيّن الحديث غربة المؤمن في هذه الدنيا، والتي تقتضي منه التمسّك بالدين، ولزوم الاستقامة على منهج الله، حتى وإن فسد الناس، أو حادوا عن الطريق؛ فصاحب الاستقامة له هدف يصبو إليه، وسالك الطريق لا يوهنه عن مواصلة المسير تخاذل الناس، أو إيثارهم للدعة والراحة، وهذه هي حقيقة الغربة التي أشار إليها النبي –ﷺ- في قوله: "بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" رواه مسلم، "وفي روايةٍ قيل يا رسولَ اللهِ : مَن الغرباءُ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد النّاسُ، وفي لفظٍ آخرَ قال : هم الذين يُصلِحون ما أفسد النّاسُ من سنتي" مجموع فتاوى ابن باز

وإذا كان المسلم سالكاً لطريق الاستقامة، حرص على قلّة مخالطة من كان قليل الورع، ضعيف الديانة، فيسلم بذلك من مساوئ الأخلاق الناشئة عن مجالسة بعض الناس كالحسد والغيبة، وسوء الظن بالآخرين، وغير ذلك مما جاء النهي عنه، والتحذير منه.

ولا يُفهم مما سبق أن مخالطة الناس مذمومة بالجملة، أو أن الأصل هو اعتزال الناس ومجانبتهم؛ فإن هذا مخالف لأصول الشريعة التي دعت إلى مخالطة الناس وتوثيق العلاقات بينهم، يقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)[الحجرات : 13] ، وقد جاء في الحديث الصحيح : "المسلمُ إذا كانَ مخالطًا النَّاسَ ويصبِرُ على أذاهم خيرٌ منَ المسلمِ الَّذي لا يخالطُ النَّاسَ ولا يصبرُ على أذاهم" صحيح الترمذي ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين كان يخالط الناس ولا يحتجب عنهم .

وإنما الضابط في هذه المسألة: أن يعتزل المرء مجالسة من يضرّه في دينه، ويشغله عن آخرته، بخلاف من كانت مجالسته ذكرا لله، وتذكيرا بالآخرة، وتوجيها إلى ما ينفع في الدنيا والآخرة.

انظروا إلى الرّضا في وجهِ الغريبِ وعابرِ السَّبيلِ لكلِّ ما يجدهُ من عَناءٍ وتَعبٍ، ومن جُوعٍ ونَصبٍ، وذلكَ لأنَّه يُمني نفسَه بقُربِ العَودةِ إلى الأهلِ والوطنِ، وتعويضِ أيامِ المَشقةِ والوَهنِ، وهكذا علاماتُ الرّضا في وجوهِ أهلِ الإيمانِ وهم يدأبونَ في العملِ الصَّالحِ، ويُمنونَ أنفسَهم بما وعدَهم اللهُ –تعالى– من الرَّاحةِ والنَّعيمِ.

جِسمي مَعي غيرَ أنَّ الرُّوحَ عندَكمُ *** فالجسمُ في غُربةٍ، والرُّوحُ في وَطَنِ

ألا تعجبونَ من اجتماعِ أهلِ الوطنِ الواحدِ في الغربةِ، تتآلفُ الأرواحُ وتتقاربُ الأجسادُ، يُساعدُ بعضُهم بعضاً، ويُؤانسُ بعضُهم بعضاً، ويواسي بعضُهم بعضاً، وهكذا هم أهلُ الإيمانِ في غربةِ الدُّنيا، يتحابُّونَ في اللهِ، ويتجالسونَ في اللهِ، ويتعاونونَ على البرِّ والتَّقوى، قَالَ اللهُ –تَعالى– في الحديث القدسي: "وَجَبَتْ مَحبَتِي للمُتَحابِّينَ فِيَّ، والمُتَجَالسينَ فِيَّ، والمُتَزَاورينَ فِيَّ، والمُتَبَاذِلينَ فِيَّ"، "المُتَحابُّونَ في جَلالي؛ لَهم مَنابرُ من نُورٍ يَغْبِطُهم النَّبيونَ والشُّهداءُ"، ويظهرُ أثرُ هذه المحبةِ جليّاً يومَ القيامةِ، (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)[الزخرف: 67].

ألا ترونَ إلى الغَريبِ كيفَ يتخفَّفُ من المتاعِ والأثقالِ والأثاثِ، ولا يتَّخذُّ ما يتَّخذهُ أهلُ البلدِ من العَقارِ والزِّينةِ والمراكبِ!، وكيفَ أنَّ عابرَ السَّبيلِ يَأخذُ فقط ما يَكفيهِ من طَعامٍ وشَرابٍ، ثم ينطلقُ وهمُّه بلوغِ مقصدِه، ولا يُبالي بالبلدِ التي مَرَّ بها، حَذِراً من قُطَّاعِ الطَّريقِ!، وهكذا ينبغي أن يكونَ المؤمنُ مِن قِصَرِ الأملِ، والتَّقلُّلِ من الدُّنيا والزهدِ فيها، وزخارفِها وحُطامِها، ومتوقيَّاً ما فيها من ملذاتٍ وشهواتٍ....

📄دَخل رجلٌ دارَ أبي ذَرٍّ -رَضيَ اللهُ عنه-، فجَعلَ يُقلِّبُ بصرَه، فقَالَ: يا أَبا ذَرٍّ أينَ متاعُكم؟، فقَالَ: "إنَّ لنا بيتاً نتوجهُ إليهِ"، فقَالَ: إنَّه لا بُدَّ لكَ من مَتاعٍ ما دُمتَ هَهنا، فقَالَ: "إنَّ صَاحبَ المنزلِ لا يَدعُنا هَهنا".

"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"، ماذا كانَ أثرُ هذه الكلماتِ على ابنِ عمرَ -رضيَ اللهُ عنهما-؟، اسمعوا ماذا كانَ يقولُ بعدَ هذه النَّصيحةِ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُوْلُ:

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ)) حضًّا منه على أن يجعل الشخص الموت بين عينيه، فيشتغل بالعمل الصالح، وأن يقصر الأمل، ويترك غرور الدنيا، ويبادر إلى العمل، ولأن المرء لا يدري متى يصل إلى وطنه صباحًا أو مساءً! فهو إذا أمسى في غربته لا ينتظر الصباح، وإذا أصبح لا ينتظر المساء.

((وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ))؛ لأنه لا بد للإنسان من الصحة والمرض، فيغتنم أيام صحته، ويُنفِق ساعاته فيما يعود عليه نفعُه؛ فإنه لا يدري متى ينزل به مرض يحول بينه وبين فعل الطاعة، ولأنه إذا مرض كتب له ما كان يعمل صحيحًا، فقد أخذ من صحته لمرضه حظه من الطاعات.

((وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))؛ أي: انتهز الحياة ما دمت حيًّا، وخذ من أيام الصحة والنشاط لموتك؛ بتقديم ما ينفعك بعد الموت.

📝لو كانَ هذا منهجُ حياةِ الإنسانِ، أنَّه يعملُ عملَ مودِّعٍ، فكيفَ سيكونُ حالُه؟، ولكنَّنا نكبرُ وتكبرُ معنا خِصلتانِ: حُبُّ الدُّنيا، وطُولُ الأملِ، مَن مِنَّا مَن يُحدِّثُ نفسَه أنَّه قد يَموتُ اللَّيلةَ؟، مَن مِنَّا مَن يظُنُّ أنَّه قد لا يُدركُ صَلاةَ العِشاءِ؟، هذا لَيسَ على البالِ أبداً، إنَّها واللهِ سكرةُ الدُّنيا، 📄يقولُ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازي: "الدُّنيا خَمرُ الشَّيطانِ، مَن سَكرَ مِنها، لم يُفقْ إلا في عَسكرِ المَوتى، نَادماً مع الخَاسرينَ".

📝إنَّ العجبَ كلَّ العجبِ ممن يغترُّ بالدُّنيا وهو يراها لا تستقرُ على حالٍ أبداً، ولا تصفو فيها سعادةٌ، ولا تدومُ فيها راحةٌ، ولا يزالُ النَّاسُ يركضونَ خلفَ حُطامِها، ويلهثونَ خلفَ سَرابِها، حتى إذا جاءَ أمرُ اللهِ -تعالى- انكشفت لهم حقيقتُها، وتَبيَّنَ لهم أنَّهم كَانوا يَركضونَ وَراءَ وَهمٍ لا حَقيقةَ له، وصَدقَ اللهُ -تعالى-: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[الحديد: 20]، ولذلكَ كانَ رسولُ

اللهِ -ﷺ- يقولُ: "مَا لي وَللدُّنيَا؟، مَا أَنَا في الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا".

بادر زمن حياتك قبل الموت؛ لأن الإنسان في حال الحياة بإمكانه أن يعمل، الإنسان في حياته بإمكانه أن يتوب، الإنسان في حياته بإمكانه أن يتدارك، بإمكانه أن ينيب إلى ربه، أما إذا مات فقد انتقل من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، إذا مات انقطع عمله إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه قال: "ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة؛ فكنوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل". رواه البخاري

ومر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالمقابر فوقف عليها قليلاً فقال: "السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون"، ثم دعا لهم وقال: "يا أهل القبور أما الزوجات فقد نُكحت، وأما الديار فقد سُكنت، وأما الأموال فقد قُسمت؛ هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟، ثم التفت إلى أصحابه فقال: "أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى".

وقال علي بن أبي طالب: الدنيا دارُ بَلاء، ونُزُلُ عَنَاء، أسعدُ الناس فيها أرغبُهم عنها، وأشقاهم بها أرغبُهم فيها، فهي الغاشةُ لمن انتصحها، المُهلِكةُ لمن اطمأنَّ إليها، طوبى لعبدٍ أطاع فيها ربَّه، ونصحَ نفسَه، وقدَّمَ توبتَه، وأخَّرَ شهوتَه.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: " أَيُّكُمْ مالُ وارِثِهِ أحَبُّ إلَيْهِ مِن مالِهِ؟ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما مِنَّا أحَدٌ إلَّا مالُهُ أحَبُّ إلَيْهِ، قالَ: فإنَّ مالَهُ ما قَدَّمَ، ومالُ وارِثِهِ ما أخَّرَ". رواه البخاري

ففي هذا الحديث يبيّن الصادق المصدوق -ﷺ- أن مال الإنسان الحقيقي الذي ينتفع به في الآخرة ليس هو المال الذي يخلفه للورثة؛ فإن هذا مال الوارث وليس مالاً له.

إن من الناس من يحوز الأموال الكثيرة، لكنه في حقيقة الأمر محروم من الانتفاع بها في الدنيا والآخرة، وهذا في الحقيقة بمثابة الحارس لهذه الأموال، نعم يحرسها للورثة طيلة حياته إلى أن يموت، فإذا مات انتقلت هذه الأموال للورثة، وأخذوها غنيمة باردة، ولربما لم يحمدوه عليها.

ولعلكم سمعتم عن قصص أناسٍ ملكوا ثروات كثيرة، وكانوا في حياتهم مقترين على أنفسهم وأهليهم، فماتوا وتركوا تلك الثروات وخلّفوها للورثة، فما استفاد هؤلاء من هذه الثروات؟! حرموا منها أنفسهم في الدنيا والآخرة، لورثتهم اغتنامها وعليهم حسابها، والسعيد من وُعظ بغيره.

قال –عز وجل–: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [فاطر:6].

إن من أعظم ما يصد الناس عن الآخرة ويجعلهم يتعلقون بالدنيا "الغفلة"، نعم الغفلة عن الآخرة يعيش الإنسان في ذهول لاهيًا لاعباً ومن كانت هذه حاله فإنه لا يوفّق لعمل صالح؛ لأنه نسي الله، فأنساه نفسه، والله –تعالى– يقول: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [الحشر:19].

إن من نسي الله –تعالى– فإن الله –تعالى– يُنسِيه نفسه، فلا يوفّق لما فيه الخير وسعادة نفسه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [النحل: 108].

أما من اصطفاهم الله ليكونوا من أصحاب النعيم، هدى قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لتنشغل في الآخرة ولقاء الله، قال –عز وجل–: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) [ص: 45-47].

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: "قال مجاهد: (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ)، أي جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم هم غيرها.

قال مالك بن دينار: "نزع الله –تعالى– من قلوبهم حبّ الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها".

قال أحد السلف: "عجبت لمن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت لمن الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه، كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة؟!"

ينبغي للمسلم أن ينظر للحياة الدنيا النظرة الصحيحة، وأن ينظر للمال النظرة الصحيحة، أقول هذا لأن هناك من الناس ينظر للدنيا نظرة غير صحيحة عندما يُرى غفلتهم ولهثهم وراء

جمع حطامها؛ كأنهم مخلَّدون في هذه الدنيا، وربما بعضهم عندما يأتي بالواجبات يجعلها أمرًا ثانويًّا أو هامشيًّا، ربما لا يصلي أحيانًا وإن صلى فاتته الصلاة أو أخرّها.

ومن النظرة الصحيحة أن يكون هناك مراعاة للأوليات، وتقديم الأهم على المهم، فهؤلاء الذين أخبر الله -تعالى- عن خسارتهم إنه خلل في مسألة الأولويات، وما الذي ينبغي أن يقدم وما الذي ينبغي أن يؤخر، فهم قدموا أموالهم وأولادهم، فجعلوا لها الأولوية، فألهتهم عن ذكر الله، وأخروا ذكر الله -تعالى- فجعلوه أمرًا هامشيًّا فكان من نتيجة هذا أن ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، وكانت النتيجة أنه من الخاسرين: (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [المنافقون: 9].

وقال الحسن البصري: (من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره).

إن الإنسان مهما عاش في هذه الدنيا فلا بد في النهاية من لقاء الله -عز وجل-، (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) [الانشقاق:6]، ومهما نال من مُتَع فلا بد في النهاية أن يلقى ربه -عز وجل- وأن ينتقل من هذه الدار الفانية، أن ينتقل من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، أن ينتقل إلى دار الجزاء والحساب.

وينسى الإنسان كل ما مرّ به في هذه الدنيا من متع أو من بؤس، أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ وَهَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ".

سبحان الله! هذان الرجلان أحدهما أكثر أهل الدنيا ترفًا وتنعمًا منذ أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة، لكنه من أهل النار، فعندما يُصبَغ في النار صبغة، ويُسأَل هذا السؤال: هل رأيت نعيما في الدنيا؟ هل رأيت ترفًا؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي نعيم قط ولا رأيت خيرا قط.

وأما الرجل الثاني فهو أشد الناس بؤسًا في الدنيا لا أحد أكثر بؤسًا ولا شدة منه في هذه الدنيا منذ أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة، لكنه من أهل الجنة، وعندما يُغمَس في الجنة يصبغ في

الجنة صبغة يقال له: يا ابن آدم هل مر بك شدة قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا مرت بي شدة قط.

أي أن الإنسان ينسى كل ما مر به في هذه الدنيا من ترف وتنعم أو من بؤس وشدة، ولا يبقى للإنسان إلا العمل الصالح، العمل الصالح هو الكنز الحقيقي الذي ينبغي أن يسعى إليه الإنسان، هو الكنز الذي يرتبط بالإنسان في حياته ومماته.

نعم إن من استقام على طاعة الله -عز وجل- فإنه يسعد السعادة العظيمة في الدنيا والآخرة، هل رأيت أحدًا استقام على طاعة الله وندم؟ لا والله، إن من يطع الله -عز وجل- ومن يستقم على طاعة الله -عز وجل- ينال الخير والرفعة والسعادة في الدنيا والآخرة، (وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب:71]، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [النحل:97].

"الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له".

اللهمَّ أصلحْ لنا دينَنا الذي هو عِصمةُ أمرِنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها مَعاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي إليها مَعادُنا، اللهمَّ لا تجعل الدُّنيا أكبرَ همِّنا، ولا مبلغَ علمِنا، ولا إلى النَّارِ مصيرَنا، اللهم لا تَجعل مصيبتَنا في دينِنا، اللهم اجعل الحياةَ زِيادةً لنا في كلِّ خَيرٍ، والموتَ راحةً لنا من كلِّ شَرٍّ، اللهم اختم لنا بخيرٍ، واجعل عواقبَ أمورِنا إلى خَيرٍ، وتوفنا وأنتَ راضٍ عنا، اللهمَّ أصلح أئمتَنا وولاةَ أمورِنا، وآمنا في أوطانِنا ودورِنا.

المراجع:

❶ شرح حديث: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل: عبد العال سعد الشليّه.

❷ حديث: كن في الدنيا كأنك غريب: اسم الكاتب: إسلام ويب.

❸كن في الدنيا كأنك غريب: سعد بن تركي الخثلان.

❹غريب أو عابر سبيل: هلال الهاجري.